نظر اجتماعي للاب توتل اليسوعي

كيف هي السجون وكيف يجب ان تكون ؟ أهي قفص من حديد تقفلت شبكاته المعدنية على وحوش ضواري ، ام مدرسة لتأديب المجرمين الذين اهمل الدهر تأديبهم ، فتاهوا في بيداء الجهل وحطوا في معاطن الهوان ؟ أتكون السجون « قبراً من قبور الاحياء » كما وصفها المأمون[1] او مأوىً لعلل الارواح ومستشفىً للنفوس ؟ أهي دار العذاب المشبهة بالجحيم المكتوب على بابها الآية التي قرأها الشاعر دانتي على باب جهنم : « ايها الداخلون اليها اطرحوا عنكم كل امل » ؛ ام هي مكان التطهير والتكفير حيث يتاح للمعتقلين ان يلتئموا شتات افكارهم . ويعودوا الى ربهم تائبين ، حتى اذا انتهت مدة سجنهم رجعوا الى ما بين الناس وعرضوا يسلوكهم الحسن عن سالف زلاتهم ؟

ان مسألة السجون خطيرة ووجوهها عديدة ، وهي تشمل ناحيةً من نواحي حياتنا السياسية والمدنية والاجتماعية والاقتصادية والدينية . والسجون كثيرة في بلادنا ، غاصة بالسكان ، على رحبها ، بين اقبية السرايات القديمة والبنايات الحديثة العهد . وان الحكومة تبذل في ايامنا همةً تُذكر لها فتشكر ، في سبيل صحة المحبوسين البدنية وخاصةً في السجون المبنية حديثاً ، كسجن بيروت ففيه دار للمرضى وطبيب وممرض . وقد يؤتى الطعام الى السجناء كل

---

١) النويري : غاية الارب ٦ : ٦٧ ، دار الكتب المصرية

يوم مرتين ، نظيفاً ؛ وتراعى في السجون حقوق الانسانية على الاجمال . فمن لا يسبب سيأ للقصاص لا يُهان ولا يُشتم ولا يُضرب . ولعل بعض السجناء المفترشين الصوف ، المتوسدين الوسائد ، القاضين ساعاتهم بين قراءة وحديث وتدخين يكونون في حالة يحسدهم عليها ذوو الكدّ والتعب من العمال خارج السجون . والرأي العام قلما يلتفت الى شؤون السجون في البلاد ، وغاية ما يتوخى فيها الناس ، هو ان تكون ابوابها محكمة الاغلاق ، لئلا يفرّ سكانها المجرمون فيعيثوا في الارض فساداً .

على ان اولياء الامر ممن تعهد اليهم الامة باصلاح شؤونها ومداواة جراحاتها ينظرون الى السجون بعين غير عين العامة ، ولا يكتفون بان يجعلوها داراً للاعتقال ، ولكن يرغبون في استثمارها غاية المكن فتكون ايضاً داراً للتأديب ولشفاء امراض النفوس . ولما كان هذا العلاج يحتاج الى اطباء روحيين من رجال الدين خاصة ، فقد اتخذت الحكومة السورية اخيراً تدعو رؤساء الاديان الى اقامة المرشدين على السجناء ، وسبقتها حكومتنا اللبنانية العزيزة فسهلت لرجال الدين دخول السجون منذ سنوات عديدة . ولا يسعني في هذا الصدد الّا الثناء على وزارة الداخلية لسلمها في الاذن الذي تخوله الكهنة للتردد على السجون لاعطاء السجناء النصائح الدينية . على ان زيارة رجال الدين السجون من حين الى حين لا تكفي لوفاء المعتقلين حقهم . وما زال امر العناية الادبية بهم مشكلاً عويصاً لم تحلّ عقده .

زار صاحب المقال السجون في بيت الدين وحلب ودير الزور وبعبدا وزحلة وبعلبك وغيرها ، وعلى الخصوص في بيروت حيث أقيمت الرياضات والقيت المواعظ مراراً . واختلط بالمسجونين على اختلاف المذاهب والاجناس من رجال واحداث ونساء ومرضى واصحاء . واجتمع بمدير السجون الانكليزي في بلاد عكا ، ايام كان سجناء فلسطين يشتغلون في تعبيد الطريق الكبرى بين الناقورة وعكا ، ووقف على طرائق مراقبتهم وتشغيلهم . وبين يديه وثائق رسمية مأخوذة عن احوال السجون في اوربة واميركة ؛ فقابل بين سجوننا وسجون الافرنج ، فرأى ان كثيراً من النقائص والعيوب المشوهة

دور الجزاء والتأديب ، موجودة في الشرق وفي الغرب معاً . كأنّ امرها منوط بطبيعة السجون وخواصها ، اذ هي دور للقصاص والاعتقال لا للرفاهية والانتزاه . على ان الامم الراقية صارت تنظر الى وجوه التأديب واصلاح المسجونين الادبي ، اكثر مما كانت تنظر الى ذلك في الماضي ، وتحققت ان ذلك الاصلاح لا يتمّ الّا بشروط عدة منها مادية ومنها ادبية فاقبلت على العمل بموجبها في تنظيم سجونها وصارت بذلك قدوة لنا . وان الغرض من هذا المقال هو البحث في اصلاح حالة السجناء ولا سبيل الى ذلك الا : اولاً بالكشف على احوال السجون اجمالاً وعلى الخصوص في بلادنا كما هي اليوم ؛ ثانياً في فهم حالة السجناء النفسية كما شخصها الاختصاصيون من اطباء القضاء ؛ ثالثاً في النظر في طرق معالجة امراض السجناء النفسية ، كما يسيرون عليها في البلاد المتمدنة .

١

دار القصاص : القفص الحديدي

ان سجن الرمل في بيروت من احدث البنايات المشادة لاعتقال المذنبين والمتهمين والموقفين ، وسوف يبلغ عدد سكانه عند انتهاء بنائه زهاء ٨٠٠ . فهو من اهم سجون البلاد وجدير بان نتخذه قاعدة للكلام . مقامه فسحة واسعة واقعة بين غاب الصنوبر والبحر ، جنوبي بيروت ، على مسافة ثلاثة ارباع الساعة للماشي اليها من ساحة البرج . هذه الفسحة مسورة بجدار عالٍ وفيها البنايات مهندسة على شكل الاصابع في الكف ؛ والبناية المختصة بالادارة والموظفين هي بمنزلة الراحة من تلك اليد . يؤتى بالمعتقل الى السجن فيُفتح امامه اولاً الباب الخارجي في الوجهة الشمالية وعليه جندي حامل بندقيته وبها حربتها . على باب الادارة يفحصون عن هوية المعتقل ويعينون له مقاماً . بنايات السجون اربع ، اضيقهن مختصة بالنساء وملاصقة لبناية الموظفين شرقاً ؛ فيها ثلاث غرف ، غرفتان مساحتهما زهاء عشرة امتار طولاً وعشرة عرضاً ، وهما على جانبي الغرفة الصغرى المتوسطة حيث مقام السجّانة . والغرف لها ابواب على دهليز طوله زهاء العشرين متراً ، وعرضه زهاء الاربعة . وفيه المراحيض وحنفيات الماء ومغسل الثياب .

ويلي سجن النساء بناية اخرى قسم جانبها الشمالي ليكون مستشفىً للمرضى ؛ فيها مطبخ صغير ، ويلاصقه غرفة الممرض وحانوت العقاقير . اما قسم البناية الجنوبي فهو عبارة عن دهليز ضيق مستطيل ، ضربت على جانبه غرف المجرمين الكبار .

ومن ثمّ بناية فيها دهليز طوله خمسون متراً وعرضه متران ، في صدره باب يفتح على ممشى مساحته زهاء المئتي متر مربع ، وهو مسقوف ، تحدق بـه قضبان الحديد ، ويقف من وراءها في الخارج جندي ببندقيته وحربتها . والبناية الرابعة شبيهة بهذه ، ولكن ليس فيها ممشى ، وفيها قاووق للاحداث صغير . وفي البنايتين الكبيرتين يوزع السجناء في قاعات كبيرات ، او في غرف منفردة ، طبقاً لمقتضى احوال المعتقلين . والغرفة المنفردة ، او « الزندان » ، يحجر فيها على المتهم الذي لم ينتهِ المدعي العام من اتخاذ قراره ، وتمنع عنه مخالطة غيره ولكن اذا احتاج الى الخروج اخرجه السجان وردّه الى محله . وكل قاعة من القاعات الكبرى مُحكمة غلق الباب بقفل متين وفيها المراحيض والماء للغسل وللشرب في زاوية من زواياها . وقد يتجنب ذوو اليسر من السجناء فرش فراشهم بالقرب من باب المراحيض . وان غزارة الماء المصبوب ، يذهب بالروائح الكريهة ولكنه يثقل الهواء بالرطوبة . وهذا الهواء اذا كثر عدد المحبوسين واغلقت النوافذ يغلظ ويضيّق الصدور . وقد يراعي الحراس في الغالب طبقة السجناء الاجتماعية فترى الفقراء في قاعة ، والموسرين في غيرها ، وهؤلاء يفترشون البسط ويستخدمون رجالاً من فقراء المعتقلين . ولا يجوز احد من قاعته الى غيرها . وسكان القاعات يقيمون ليل نهار في مقامهم مجتمعين ، ويتراوح عددهم بين العشرين والاربعين . وبينهم الرجل المأيوس والجاني المحبوس لاول وثاني وثالث مرة ، والموقف توقيفاً ، والمتهم ، والشاب ، والكهل ، والمحبوس لشهرين ، ولخمس وعشرين سنة . وان عدوى الامراض النفسية تتفشى من عليل الى عليل ولكن هذا الخطر لم يُعبأ به وجلّ ما هو مطلوب من المعتقلين ان يركنوا الى السلامة في قفصهم الحديدي .

هذا في « الرمل » اما في بتدين فالسجن اشبه بالخان الكبير . وكذلك

سائر السجون الكبرى في حلب وفي دير الزور قديماً . وبعض السجون موقعها في اقبية السرايات او في طبقاتها السفلى كما في بعبدا وزحلة وبعلبك . اما حالة المسجونين فلا تكاد تتغير عما وصفناها في «الرمل» ، الّا انهم في الغالب يتمتعون بفسحة مفتوحة على السماء . ذلك هو مقام سكناهم – اية هي حالتهم الادبية ؟

دار « المنسيين »

قال ابن عبد القدوس في حبسه :

خرجنا من الدنيا ، ونحن من اهلها ، ولا نحن في الاموات فيها ، ولا الاحيا .
اذا جاءنا السجان يوماً لحاجةٍ عجبنا وقلنا : جاء هذا من الدنيا .

ان في هذا الكلام بعض المغالاة ومع ذلك فهو صحيح في عدد وافر من السجناء . وما اكثر ما رأينا الساكين يتقدمون الينا ويقولون : ما من سبيل الى الصلة بيننا وبين الناس . نحن في السجن منذ اشهر ولا احد يسأل عنا . تقدم الي يوماً رجل في حالة رثة وقال : « اتهمتني امرأتي بذنب فالقوا الشبهة علي وطرحوني في السجن ، وانا فيه منذ ١٦ شهراً . » ثم أطلق سبيله ؛ فسألت عنه ؛ فقالوا : كان بريئاً . وسمعت شاباً يقول : « سرق جاري في بعلبك . فتعقّبوا السارق فلم يجدوه . فدخلوا علي ، وكنت طريح الفراش مريضاً ، فساقوني الى السجن . ولي فيه ثلاثة اشهر ولا احد يسأل عني . » ولما سمعني اتحدّث اليه اغرورقت عيناه ولسان حاله يقول : « وقلنا جاء هذا من الدنيا »

ودخلت المستشفى ، فرأيت رجلاً مسلولاً ، فسألته عن سبب علته . فقال : « وضعوني في قبو معتم رطب ، مدة اسابيع ، فرضت ولا احد يسأل عني وانا غريب اجنبي . » ثم قال : « على ان صفتي الاجنبية حالت دوني ودون عذابي . كان في جراري رجل لرمني حاولوا أن يضطروه بالقوة الى الاقرار ، فضربوه وصرعوه وداسوه بالارض . »

وقال آخر : « حرموني من الطعام ثماني واربعين ساعة ليحصلوا مني على زيادة اقرار ولكن لا اعرف اكثر مما قلت . ولا احد يأتي اليّ فيسأل عني سوى السجان فانا في « الزندان » كالميت في القبر . »

وسار عند الاميريكان مثل في السجون فقالوا : « السجن دار المنسيين . »

على ان هذه الدار تغلو كالقدر على الماء واذا ضاقت الصدور وبلغت الروح التراقي ، انفجرت قنبلة الارواح واحدثت الثورات والفتن.

في السنوات الاخيرة تآمر ست مئة سجين على حراسهم في الكولورادو ، في الولايات المتحدة ؛ فتغلبوهم على امرهم ، واغتصبوا المفاتيح ، وضبطوا مرافق الحبس ، واقتتلوا قتالاً قلما سبق له مثيل في عهد السجون.

واضطرمت نيران الفتنة في سجن ليفنورث المركزي حيث كان ثلاثة آلاف من السجناء محشورين في بناية قد اعدت لالف وثماني مئة فقط . وينفق على معيشتهم ما كانوا يتقاضونه لمعيشة الف وثمانمئة فقط.

وان امريكا هي بلاد العجائب والغرائب ، وهي بسعة اراضيها وكثرة عدد سكانها ، عظيمة بخيراتها ، وعظيمة بشرورها ايضاً . اما بلادنا فدونها سعة وشراً . ومع ذلك فان وقوع الفتن غير نادر في تاريخ حبوسنا . اما الحوادث الافرادية فكثيرة ، ولا تنقضي الاشهر الّا وتنعي الصحافة سجيناً يهلك انتحاراً اما بشنقه ذاته او باحراقه نفسه ، او يموت حتف انفه بعد ان يكون طال نزاعه اياماً وشهوراً ، ولا احد يكترث لامره ، وحياة الكثيرين من المحبوسين في نزاع مستديم.

بحثوا في امريكا عقب الفتن التي ذكرناها عن اسباب وقوعها فكانت على ما يلي . ١ً : الملل الذي يعتري السجين من طول القيام في سجنه وعلى الخصوص ان كان في الخلوة (او في الزندان) ، ولا يُسمح له بالمخالطة ولا بالحديث مع انسان وهذا الملل دونه مرارة الموت. ٢ً : سوء معاملة الحراس الذين يستعملون الوسائل المادية لضرب المحابيس بالعصي وغيرها. ٣ً : تعسف الحراس وظلمهم المحابيس وسبهم وشتمهم لادنى هفوة يرتكبونها. ٤ً : ضيق المكان نسبة لعدد السكان. ٥ً : قلة العناية بالطعام ليكون شهياً مقبولاً واساسه في الولايات المتحدة نوع من انواع اللفت يسمونه بارسنيس (*parsnips*)

جرت الحوادث فاحدثت ضجةً وشغلت الصحافة فالتفت الناس اليها ، ثم حولوا نظرهم عنها . وعاد السكوت فضرب سرادقه على السجون وسكت السجناء في امريكة ؛ اما في بلادنا ، فلا يسمع صوتهم الا نادراً ، ولا يهتم

ان يمحي اثره مع الساعات والايام.

على ان بنايات السجون لا تزال شاهداً عياناً لما يقع فيها من العقوبات القاسية.

وقفت على باب احد السجون في المنطقة الشمالية ، وقد اذن لي الحاكم بالدخول . فامتنع المأمور وكان منتظراً البخشيش. فكرر الحاكم الامر . فدخلت فاذا فناء لا تزيد مساحته على اربعمائة متر مكعب ، يغص بزهاء ثلثمئة رجل . ونظرت فاذا حنفية ماء الشرب تجري بالقرب من المراحيض . واما هذه فجورة مكشوفة على الدوام . وبالقرب منها قبو فيه غرف لا يشرف عليها نور الشمس ابداً. دخلتها فاذا مساحتها بضع امتار مكعبة ، لا بلاط فيها ولا حصير. يفترش صاحبها الحضيض فراشاً فيقاسي برد الشتاء وحرّ الصيف والعفونة ، وروائح المراحيض الكريهة المنبعثة ابداً.

اما في بيوت فعدد وافر من السجناء لا يبصرون نور الشمس الا من خلال شبكات ضيقة ، تصفي عليهم الضياء ضئيلاً . قال لي السجان يوماً « اقتصصنا منهم لانهم ضجوا ليلاً خلافاً للقانون القائل بالسكوت عند الساعة التاسعة مساء.» فنظرت فاذا هم زهاء الخمسين مكتظين في قاعة لا تحل فيها لاكثر من الخمسة والعشرين. فقلت : « لا عجب من ان يقلقوا ويضجوا ونحن في آب اللهاب ! »

— ولكن حلت فيهم العقوبات وعلى ضجيجهم ، حُكم عليهم الا يبارحوا القاووق مدة ٤٨ ساعة . اي انهم حرموا من الانتزاه في دهليز الحبس المظلم وطوله ثلاثون متراً وعرضه المتران !

فلا عجب اذن ان تبدو على وجوه بعضهم ملامح اليأس وامارات الحزن والقنوط . افلا يكفي هؤلاء المساكين ابتعادهم عن آلهم وبنيهم واخوانهم وفقدانهم الاموال في الدعاوي وحرمانهم كل ما هو عنوان الراحة المادية والمعنوية ؟ وما بالنا نزيد في طينهم بلة ، وعلى نارهم جمرة : فضرب وشتم وتنكيل . . .

تقدم الي احد السجناء ، وهو مكبل بالسلاسل ليل نهار فذكرني باخبار العصور المظلمة وبايام الاتراك.

العين بالعين والسن بالسن

وكأني بمعارض يقول: قد تحدث اليك الناس بذلك المجرم المكبل بالسلاسل ليل نهار ، وعلمت منهم انه قتل اثنين من الناس ، ولم ينج من عقوبة الاعدام الا لكونه قتل عن غير تعمّد ، وامثاله كثيرون .. أعلى هؤلاء الحسرات ؟ انسى قول الجاحظ : من « قابل الاساءة بالاحسان فقد خالف الله في تدبيره .» اقرأ ما جاء في نهاية الارب للنويري (٦:٦٥) :

ومن الناس من يرجّح عقوبة المذنب على ذنبه ومقابلة المسيء بما يستحقه من نكاله وضربه ورأى ان العفو عن المجرم موجب لتكراره والاحسان الى المسيء مقتضٍ لاصراره ؛ وقال : ان طباع اللؤم التي حملته على ذلك لا ترتدع بالاحسان ، ومرارة الذنب التي استحلاها لا تتبرها حلاوة الغفران . واخذ في ذلك بالكتاب والحديث ، وقابل على الذنب القديم بالعذاب الحديث وجاء في القرآن : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ؛ وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به» وقد امر نبي المسلمين بقتل ابي عزة وصلب عُقبة بن ابي معيط يوم بدر الى شجرة فقال : يا رسول الله انا من بني قريش ! قال نعم . قال فمن للصبية ؟ قال النار . وكان النضر بن الحارث شديد العداوة للنبي فأخذ اسيرًا يوم بدر فامر بقتله فقتل صبرًا يد علي بن ابي طالب .

وقال علي : الشر بالشر ، وقال : رد الحجر من حيث جاءك ، وقال :

ولي فرس للخير بالخير ملجمٌ ولي فرس للشر بالشر مسرج

ومن اقوال العرب في مثل ذلك كثير ومنه :

اذا المرء اولاك الهوان فأوله هوانًا وان كانت قريبًا اواصره
وان كنت لم تقدر على ان تهينه فدعه الى اليوم الذي انت قادره
وقارب اذا ما لم تكن لك حيلة وصبّر اذا ايقنت انك عاقره

وليست اقوال العرب في الانتقام والعقوبة الا ترداد ما جاء في شريعة موسى الكليم : « العين بالعين ، والسن بالسن » . وان هؤلاء السجناء لم يصلوا الى حالتهم التعيسة الا بارتكابهم المحرمات ومطاوعتهم النفس الامّارة بالسوء ، وفيهم الكذاب والمنافق والسارق والقاتل والفاسق . فمن العدل ان يحتملوا تبعات سيئاتهم ويجازوا عليها بالقصاصات الصارمة . فلا لوم على الحكومة اذا نكلت بهم وجعلتهم عبرة لمن اعتبر . وان وضع القصاص في محله واجب لازب ، ولولاه لقويت شوكة الجرائم واضطرب حبل الامن وتضعضعت اركان

النظام العام . والقوة في الحكام فضيلة . وجاء في الانجيل الطاهر : «من اخذ بالسيف ، بالسيف يؤخذ.»

على هذا الاعتراض اجاوب واقول : لا بد من مقاصّة المجرمين تعويضاً عن امتهان الشرائع ، وترهيباً للناس . ولكن العدل يقضي بالتناسب بين الجريمة والقصاص . وقد تتذرع الحكومة بذلك العدل لتقضي على القتلة بالاعدام ولا لوم عليها . اما في دون ذلك من الجرائم فلا بد من مراعاة كل ظرف من الظروف والنظر ليس فقط الى الجريمة ولكن الى حالة المجرم عند ارتكابه الذنب لعل العوامل التي دفعته اليه تخفّف من ثقل تبعتها عليه او تزيلها.

فيقول المعارض ان القانون يعتبر الظروف المخففة ويراعي حقوقها في تصدير الحكم واعلان الجزاء . اما اذا تم الحكم وقضي في الامر ، فما على السجّان الا تنفيذ الحكم فحسب.

اقول : لا ، لا يكفي الحكام ان يزجوا المجرمين في السجون ويتركوهم وشأنهم . ان الفكرة القديمة في طبيعة السجون اخذت تتطور وتتنير منذ اشرق على العالم نور الانجيل ودوى صوت المسيح في الخافقين داعياً الى الرفق بالبائسين : «كنت سجيناً واتيتم اليّ» . تحركت اواصر الرحمة وتمخضت بالحنان وارسلت الى ظلمات السجون نور الشفقة والاغاثة ، فدخلها القديسون يفتدون الاسرى ويفكون اغلال المقيدين . وقال احمد شوقي :

ولد الرفق يوم مولد عيسى والمروآت والهدى والحياء
لا وعيد ، لا صولة ، لا انتقام لا حسام لا غزوة لا دماء.

وانبعثت روح الشفقة المسيحية في الامم المتمدنة ونتج واحدثت انقلاباً في علم الاشتراع الجنائي ساعد عليه حديثاً تقدم العلوم الطبية والفلسفية . وتغيرت آراء القضاة في حقيقة الجرائم وعللها ، وادى البحث والتعمق في الامر الى النظر الى المجرم السجين نظر الطبيب الى المريض والى السجون لا كانها مقام القصاص فقط او قفص محكم المرافق يكفينا ان نطرح فيه السجناء ونضرب صفحاً ذكرهم ولكن كما يجب ان تكون : مستشفى للنفوس العليلة ومدرسة للمتأدبين كما سنرى.

(للمقال صلة)